سلسلة الترجمات - ١٠

Ibn Taymiyya

Against Extremisms

Texts translated, Annotated and Introduced by

Yahya Michot

Foreword by

Bruce Lawrence

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

ابن تيمية ضد التطرف

يحيى ميشوت

ترجمة : مركز دلائل

ابن تيمية ضد التطرف

« تلك هي ذات الأركان التي بمرور القرون أنعشت الروحانية والأخلاق وأسلوب حياة المُسلمين الأخيار . لا يُحبّ ابن تيميّة إخوان الصفا . لكن في الفقرة من رسالتهم التي عرضت أعلاه ؛ لم يجد شيئًا مُخالفًا لهم، كما يرفض لعن المُسلمين الآخرين لخطأ أو ذنب ؛ كما أنّه يُحرّم انتهاك حياة المُسلم وماله وعرضه ، ويستنكر التطرّف الذي يفضي للامتناع عن الصلاة خلف أئمّة مُعيّنين ، أو في حالة العداوة إلى مُعاملة المُسلمين الذين يُقاتلهم كمُعاملة الكافرين . يُفسّر ذلك بوضوح في الخلاصة التالية من قاعدة أهل السنة والجماعة ، فضلًا على ذلك يقدّم ذاته - كما قام الرسول الكريم - بأنّه مُستعدّ لتقبّل جميع أنواع الأعذار، "الخاصة أو العامة ، الدائمة أو العرضية" ، وهذا ينطبق كذلك على المُخطئ الذي لا يعلم، أو أخطأ في فهم فرائض الدين ، والله يُحبّ التسامح حقًا ، ولا يُكلّف نفسًا إلا وسعها، وجعل لكلّ شيء قدرًا.

ابن تيمية، مُتطرّف؟ نعم ، مُتطرّف في اعتداله ...! ».

يحيى ميشوت

أستاذ الدراسات الإسلامية البلجيكي المسلم ، ورئيس المجلس الأعلى للمسلمين في بلجيكا من عام 1995 إلى عام 1998 ، يعمل بالتدريس في معهد هارتفورد - كونيتيكت ، ومحرر بمجلة العالم الإسلامي.

جوال : ٠٥٣٩١٥٠٣٤٠ E-Mail:dalailcentre@gmail.com
Dalailcentre/

ابن تيمية ضد التطرف

Ibn Taymiyya Against Extremisms

يحيى ميشوت

Yahya M. Michot

ترجمة:

مركز دلائل

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض – المملكة العربية السعودية
ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولىٰ

١٤٣٨هـ

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

Ibn Taymiyya Against Extremisms **ابن تيمية ضد التطرف...**

Yahya M. Michot **يحيى ميشوت**

ترجمة: مركز دلائل

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2017 for **Dalail centre**
Ibn Taymiyya Against Extremisms by Yahya M. Michot
@ Editions Albouraq, 2012
Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with Dalail centre. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder.

تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدىٰ مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً لتوجهاتنا واهتماماتنا، إذ معلوم اصطباغ كل عملٍ أو كتابٍ بمذهب أو فكر أو دين أو مجتمع صاحبه، فنقوم بإبراز ما فيه من فوائد، والتعليق علىٰ مالا يناسبنا منه، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

وفي هذا الكتاب يستكشف القراء نواحي غير مشهورة عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وغير التي يصبغه بها الكثيرون اليوم من صبغات الإرهاب أو التطرف، وذلك بقلم من خارج بلاد العرب، إنه أستاذ الدراسات الإسلامية البلجيكي المسلم يحيىٰ ميشوت، حيث يجلي لنا نواحي الوسطية والمحبة الإلهية عند ابن تيمية رحمه الله ووضعه لأسس الاعتدال فيها بلا إفراط ولا تفريط، ويبرهن لنا كذلك علىٰ تفهم شيخ الإسلام لطبيعة الظروف التي قد تحيط بالمسلم من ظلم أو كفر وضرورة احتكاكه بها، وأيضا إدراكه لاختلاف الناس عامة، واختلاف المسلمين خاصة، وكيفية الحكم والتعامل في كل حالة.

مركز دلائل

***

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
۞ التعريف بالكاتب	١٣
۞ تقديم	١٥
۞ مقدمة	٢٧
۞ الفصل الأول: دين الوسطية	٤٣
۞ الفصل الثاني: الوحدة واحترام التنوع في المجتمع	٥٣
۞ الفصل الثالث: التسامح، والتشدد، ووحدة المجتمع	٦١
۞ الفصل الرابع: الكفر والمغفرة	٧٧
۞ الفصل الخامس: هل يتردد الله؟	١٢٩
۞ الفصل السادس: هل للبشر حقوق علىٰ الله؟	١٤١
۞ الفصل السابع: الحب وصحة القلب	١٥١
۞ الفصل الثامن: حقيقة محبة الله ومحبة الناس	١٧٣
۞ الفصل التاسع: الإيمان والحب	٢١١
۞ الفصل العاشر: العبودية في العبادة	٢٢٥
۞ الفصل الحادي عشر: الحب والشريعة	٢٤١
۞ الفصل الثاني عشر: سيد بني آدم	٢٤٩
۞ الفصل الثالث عشر: «تبجيل» النبي	٢٥٩

المحتوى	الصفحة

- الفصل الرابع عشر: اتباع محمد ﷺ من حب الله ٢٦٩
- الفصل الخامس عشر: طاعة ولاة الأمر ٢٧٩
- الفصل السادس عشر: «قد جعل الله لكل شيء قدراً» ٢٨٩
- الفصل السابع عشر: المسلم بين الكافرين ٣٠٥
- الفصل الثامن عشر: مثل يوسف في خدمة الفرعون ٣١٧

* * *

التعريف بالكاتب:

يحيىٰ ميشوت Yahya Michot هو أستاذ دراسات إسلامية بلجيكي، عرف بتخصصه في دراسة وتتبع وترجمة التراث الإسلامي وتحليله، وخاصة تراث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد تولىٰ رئاسة المجلس الأعلىٰ للمسلمين في بلجيكا من عام ١٩٩٥ إلىٰ عام ١٩٩٨.

يعمل بالتدريس في معهد هارتفورد - كونيتيكت كأستاذ للدراسات الإسلامية والعلاقات المسيحية الإسلامية، وهو محرر كذلك في مجلة «العالم الإسلامي» The Muslim World، وهو متحدث ضيف لمركز أكسفورد للدراسات الهندوسية.

له كتب وتراجم لبعض أعمال ابن تيمية وابن سينا وغيرهم، وقد تم تحرير بعض محتوىٰ الكتاب ليناسب جميع القراء بالابتعاد عن أية أسماء معروفة سياسيا في العصر الحالي. والاكتفاء بالخطوط العامة التي هدف الكاتب إلىٰ إبرازها وتوضيحها من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية.

***

تقديم:

نجد في جميع الأديان، كما هي جميع النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية، مجموعة من الضوابط أو الحدود، وتلك الحدود لها علامات لمن ينتمي ومن لا ينتمي إليها. ولا تحدد هذه العلامات أفراد الجماعة من غيرهم فقط، وإنما أفراد الجماعة نفسها يجب ضبطهم وتقييمهم، ومن عدّ مستحقًا للانتماء يحمل اللقب والامتياز، بعكس آخرين يحملون اللقب ولا يستحقون مجده.

قليل من الأفراد في دين الإسلام أشير إليهم بالحفاظ علىٰ حدوده علىٰ مستوىٰ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (توفي عام ٧٢٨/ ١٣٢٨)[1]. عالم دين حنبلي، فقيه ومُناظر من دمشق، خالف العديد من كبار معاصريه، وأيضًا السلطات السياسية في مدينة إقامته دمشق التي أجبر علىٰ الانتقال إليها بسبب الاجتياح المغولي لمدينته الأم. عاش في وقت كان الأثر المغولي علىٰ الإسلام قد دخل مرحلته الثانية: بعد المرحلة الأولىٰ من احتلالهم للمدن الكبرىٰ في العالم الإسلامي واعتناقهم الإسلام ولكن هل كانوا مسلمين بصدق؟

(١) في كل التواريخ المذكورة في الكتاب يمثل الرقم الأول التاريخ الهجري، والرقم الثاني التاريخ الميلادي (المترجم).

هو سؤال قد يطرح كثيرًا، ولكن قلّة تجرؤوا علىٰ الإجابة بجرأة أو شمولية ابن تيمية. من أهم الأسباب التي تجعله دائم الإشارة إليه في حاضرنا هي إغواء إرثه لمتمردي العصر، وهم من يدعون بمتطرّفي العالم الإسلامي، الثائرين ليس فقط ضدّ الغرب المهيمن بل أيضًا ضدّ مسلمين آخرين من بينهم، وحتّىٰ الحكام، الذين يدّعون الإسلام ولكنّ امتثالهم لمبادئه الأساسية مشكوك فيه علىٰ أقلّ تقدير.

ورغم أن هذه القراءة المعاصرة لابن تيمية قد تكون مطلوبة، لكنّها أيضًا خطيرة. هي قراءة تترك في النفس تقديرًا واسعًا للعالِم الذي أراد الحفاظ علىٰ حدود الإسلام الحق، ولكنها في ذات الوقت تؤكّد علىٰ جوهره الإيجابي الأعمق. ذلك الجوهر كان بالنسبة لابن تيمية هو الاعتدال. الاعتدال بين الحدود القصوىٰ الغيبية – المُتمثلة في تجريد الله أو تجسيده – والاعتدال أيضًا بين الحدود القصوىٰ الاجتماعية – المُتمثلة في مذهب المتعة والشهوة نحو كائن آخر، أو علىٰ سبيل التدجيل، أو ادّعاء المرء كونه صنفًا ما من الأفراد بينما هو غير ذلك.

في سعيه نحو الوسطية أو الاعتدال كمبدأ جوهري في الإسلام، حصد ابن تيمية أيضًا دعمًا من الصوفية. لم تكن صوفية مفرطة كأتباع وحدة الوجود، والتي أدانها، أو الصوفية اللا اتباعية لدىٰ المتسوّلين، والتي أدانها كذلك، بل هي الصوفية التي كانت مشبعة بمحبّة الله. لقد أحيت محبة الله الصوفيين الحقيقيين كما أحيت جميع المسلمين الحقيقيين لأنّها عكست الرسالة الأعمق للكتاب المقدّس القرآن الكريم، وكذلك السلوك المثالي

لخاتم الرسل، رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

من بين الكتب الكثيرة التي كتبها ابن تيمية، كتاب بعنوان الكلم الطيّب، ويضمّ بعض الأحاديث الشريفة المنسوبة للرسول محمّد عليه الصلاة والسلام، والتي يعتقد أنّها مفيدة لجميع المسلمين. أحدها منسوب لزوجة الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة. ذكرت أنّ الرسول «كان يحب التيمن». وذلك لحبه للفأل الحسن أو الصالح، ولذلك جاء في حديث آخر عندما سئل الرسول: «وما الفأل يا رسول الله؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»[1].

كان ابن تيمية منكبًّا علىٰ سماع الكلام الطيّب، والذي يثل كل حق جاء في القرآن الكريم أو في كلام خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام. وبسبب اضطرار عائلته إلىٰ الانتقال لدمشق هربًا من المغول، لم ينقطع عن إخفاء هذه الخسارة في بحثه عن الكلم الطيّب. كان بحثًا قاده عادة إلىٰ السجن، إلا أنّه لم يذعن أبدًا لمُنتقديه أو معذّبيه؛ واستمرّ في تأييده لما شعر بأنّه الحق، أي الكلم الطيّب في الإسلام كسبيل يجب اتباعه وكنز يجب حفظه في آن معًا. لم يتزوّج أبدًا ومات في السجن مخلفًا إرثًا زاخرًا.

هل كان ابن تيمية مجرّد مُصلح شديد أم كان أيضًا صوفيًّا ورعًا[2]؟ منذ

---

(١) ابن تيمية، الكلم الطيب، ترجمة IBRAHIM وJOHNSON-DAVIES، Word، (٣٤٠).

(٢) الصوفية لفظة مستحدثة كانت تشير في الأصل إلىٰ حب الله والزهد في الدنيا وتزكية النفس والورع، ولذلك لا يحكم شيخ الإسلام علىٰ الصوفيين كلهم بحكم واحد وإنما يفصل في ذلك كعادته وعدله مع الآخرين فيقول في رسالته الصفدية (١/ ٢٦٧): «والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبدالرحمن السُلمي في «طبقات الصوفية» وأبو القاسم القُشيري في=

مقالة جورج مقدسي[1] عام ١٩٧٣، ظن البعض أنه صوفيّ قادري، ورغم أنّ فريتس ماير شكّك في هذا الاتباع[2]، إلا أن الإرث الأدبي الكبير لابن تيمية يحتوي على الكثير مما يدعم الطريقة الصوفية، حتى مع رفضه للتفكير التأملي الصوفي. فالصوفي الصادق أيضًا هو المُسلم الصادق: كلاهما كانا مرتكزين على الوحي القرآني والسلوك النبوي المتبع أو السنّة.

كان لدى ابن تيمية ميلٌ لتصنيف الجماعات أو المُمارسات؛ فتبعًا له كان الصوفيون إما:

المتنوّرون الحقيقيون، أو المخلصون والدمثون المتنسكون في الصوامع (خانقاه)، أو الصوفيون المدّعون للصوفية بالمظهر فحسب ويضلّون المُسلمين الصادقين. ويقارن بين المجموعتين الأولى والثانية مقابل الثالثة، مجموعة الدجالين. المجموعتان الأولى والثانية «تؤكد محبّة الله، وهذا أكثر

=«الرسالة» كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث كالفضيل بن عياض، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبدالله التُستري... وأبو عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم، وكلامهم موجود في السُنة، وصنفوا فيها الكتب؛ لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد، ولم يكن فيهم أحدٌ على مذهب الفلاسفة، وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة: تارةً على طريقة صوفية أهل الحديث، وهم خيارهم وأعلامهم - وتارةً على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم - وتارةً على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة» يعني ابن عربي وابن سبعين (المترجم).

(١) انظر: G. MAKDISI, *Sufi*

(٢) انظر: F. MEIER, *Cleanest,* 318

وضوحًا بينهم من بقية الأمور الأخرىٰ. الأساس في أسلوبهم (الطريقة) هو ببساطة العزيمة والمحبّة. تأكيد محبة الله معروفة جيّدًا في خطاب شيوخهم الأوائل والجدد، تمامًا كما هو مؤكّد في الكتاب (القرآن) والسنة ومنهج السلف (الأجداد الورعون أو المسلمون الأوائل)»[1].

باختصار، مثل الصوفي الذي يؤكّد عمليا علىٰ محبة الله كمثل الرجل الذي أوصاه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول عند دخوله السوق: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كلّ شيء قدير». من قال هذا الدعاء عند دخول السوق، أعلن الرسول ﷺ أن: «كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة»[2].

لا شك أنّ ابن تيمية قصد إصلاح من لا يقرّون بالكلمة الطيبة كما فهمها، وقد كشف كثيرًا وهاجم مرارًا ما شعر أنّه إسراف في الصوفية. نجد في أعلىٰ هذه القائمة أتباع وحدة الوجود أو الحلول والاتحاد[3]، والذي كان ابن

---

(١) انظر: T. HOMERIN, *Sufis*, 234

(٢) ابن تيمية، الكلم الطيب، ترجمة IBRAHIM وJOHNSON-DAVIES، *Word*، (٣٢٦) (مع بعض التعديل).

(٣) من الأفكار الوثنية القديمة التي انتقلت إلىٰ بعض المسلمين وخاصة الصوفية هي العقائد الباطلة مثل وحدة الوجود التي تزعم أن الوجود كله واحد (خالق ومخلوق)، أو عقيدة الحلول والاتحاد التي تزعم حلول الخالق في أحد مخلوقاته أو اتحاده به، وكذلك عقيدة الوحي التي يزعم أحدهم فيها ان الله يوحي إليه مثل الرسل والأنبياء بكلام مباشر أو يعفيه من العبادات وتكاليف الشرع، أو الذين يزعمون بأن أكثر المسلمين لهم القرآن الظاهر=

عربي أكبر ممارسيها وهو المتصوّف الأندلسي واسع الشهرة المؤلف للكتاب الصغير فصوص الحكم، والذي زعم أنّه تلقاه كإلهام في الحلم من الرسول الكريم بذاته[1]. كان كتاب فصوص الحكم بالنسبة لابن تيمية تشويهًا للرسالة الحرفية لآخر وحي الله. بإساءته تفسير القرآن، لم يتمسك ابن عربي بالكلمة الطيبة، ولذلك فتح الباب واسعًا للممارسات اللاأخلاقية. وأسوأ من ذلك كان أولئك الشعراء المتبعون لتعاليم ابن عربي. وبسبب اكتساب شعرهم الشهرة، أحدثوا ضررا في المجتمع المسلم تجاوز أعمارهم، مع تأثيرات وخيمة مما يدعون إليه للأسف لأنّها كانت خفية وماكرة ومستمرة[2].

كان مثل هذا الاعتقاد بالنسبة لابن تيمية – سواء في النثر أو الشعر، وسواء من شيوخ أو شعراء أو متصوفين – معادلًا للحلولية أو التجسيد. وقد ردّ كثير من الصوفيين الذين هاجمهم بأنهم كانوا يستعملون تعابير التوحد مع الله فقط بالمفهوم المجازي. ليس من المُمكن التوحد مع الله الواحد، وقالوا جدلًا: التوحيد يماثل التوحد، والتعبير الأعلىٰ للتقوىٰ هو في وحدة الوجود، أو رؤية الوحدانية كقوة نافذة في الكون والبشرية.

***

=ولكنهم لهم معاني خاصة في باطن القرآن لا يعلمها إلا هم. ومن أولئك وهؤلاء ظهر متمسحون في الصوفية يرتكبون المحرمات من شعر ماجن وزنا واختلاء بالنساء ورقص وخمر وترك للصلاة بدعوىٰ أنهم أهل الله وأهل العلم الباطن (المترجم).

(١) حول كتاب الفصوص. انظر: R. NETTLER, *Metaphysics*

(٢) انظر: T. HOMERIN, *Sufis*, 233

أبدئ ابن تيمية رفضًا لهؤلاء المتصوّفين المفرطين، وسنرئ ذلك ضمن مجموعة نصوص هذا الكتاب، والتي تتألف من أوامر شرعية أو فتاوئ وكتابات أخرئ من شيخ الإسلام الحنبلي، مبوبة حسب الموضوع ومترجمة للإنجليزية، ومعلق عليها ومعروضة للقارئ العام. يقدّم هذا الكتاب بعنوان ضدّ التطرف مواضيعًا في ثماني عشرة مسألة. المواضيع الستة الأولئ دقيقة ولكن متوقّعة: دين الاعتدال أو الوسطية، وواجب احترام التنوع الداخلي، والأمر بتقديم التسامح، والمظهر المختلط للدراويش «المجاذيب»، والعدالة الإلهية الحق، وحقوق الله. ومن قرأ من قبل أشياء لابن تيمية من مصادرٍ أخرئ قد يجد مواضيعًا مألوفة، وهي نقاشات وأدلة في هذه الفصول الستة، ولكن قد يتفاجأ بعض القراء أو حتّئ يذهلون من الفصول الثمانية التالية.

فمحتوئ الفصول من ٧ إلئ ١٤ يعد تأكيدًا علئ الحب كونه الأساس للتجربة الإنسانية بأكملها - من أول خلق آدم وحواء والرسل عليهم السلام، ومرورًا بالوحي لليهود والمسيحيين (النصارئ) قبل قدوم خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، حيث تمام الحب في اتباع الشريعة وتوقير الرسول. فيوضّح ابن تيمية موقفه عبر مقارنة ومغايرة مع آراء خصومه في أكثر من موضع، مثل المعتزلة والمتصوفة المبتدعين، أو حتئ علماء الدين الفاسدين. حيث حاورهم ابن تيمية جميعًا ومن بعدها دحض أقوالهم. ولن يكون من العدل محاولة تلخيص حججهم في هذه الفصول أو الأدلة المختلفة، ولكن قد نلتقط حسّ حمية الفقيه الحنبلي في مناقشته لهم - عبر المقارنة/ المغايرة - للمفاهيم الرئيسية مثل: العشق، الشهوة والمحبة.

كامل محتوىٰ الفصل السابع آت من نهاية قسم لمجموعة فتاوىٰ ابن تيمية التي تتناول موضوع أمراض القلب وشفاؤها. وهي متشابكة تشابكًا معقدًا مع اقتباسات من مصادر نصية متعددة، وتدور حول حجة واحدة شاملة وهي أن: لا العشق ولا الشهوة مبرران كمفهوم لتفسير الحب المقبول أو المعتدل سواءً تجاه البشر أو الإله، ولا حتىٰ في عكس ذلك للنزعة الوجدانية للخالق تجاه مخلوقاته. فالعشق، كما سنرىٰ، هو مرض للقلب وهو ضار. والشفاء الوحيد للمريض «يتحقق باختفاء مرضه أو بالأخرىٰ اختفاء حبه المستحق اللوم من قلبه». وفي حُرمانية العشق، يقدم المُترجم حاشية طويلة تتعلق بتأملات روزبيهان البقلي الشيرازي للمواقف المعادية للسادة الصوفية السابقين، وينقل عن ابن تيمية في نفس الوقت انتقاده الشديد لهم: ليس فقط بالدليل من القرآن والسنة وإنما أيضًا من شهادة معظم علماء الدين، وهي ضدّ استعمال العشق بخصوص الله.

ولماذا العشق مرفوض؟ لأنّه يتعدىٰ الحدود، ويتجاوز تخوم الأدب، كما في هذا البيان: «العشق في الواقع هو محبّة مفرطة، تتجاوز الحدود الملائمة، وبما أن حب الله ﷻ لا منتهىٰ له؛ فإنه لا ينتهي عند حد لا يكون تجاوزه ملائمًا. فالعشق الذي يحكي عنه علماء الدين هؤلاء مُلام قطعًا ولا يجب الإشادة به؛ سواء بخصوص حب الخالق أو حب المخلوق. فهو حقًا حب مفرط يتجاوز الحد المحمود».

وبعد هذا الخطاب وكشف ورفض العشق، يجري ابن تيمية جِراحة شبيهة وإن كانت أقصر بالنسبة للشهوة قبل الالتفات إلىٰ الحب أو المحبة،

والتي يمدحها لأنها تتوسط فطرة البشرية بأكملها، وأيضًا هي المبدأ المركزي والجوهري والأسمىٰ في الإسلام. حيث يجب ألا نخلط بين الحب أو المحبة وبين مفهوم الحب اليهودي أو المسيحي، كما يفعل بعض الصوفيين للأسف. فهو جهاد ولكنه جهاد أسمىٰ وأعظم ضدّ النفس الفاسقة من الداخل، وليس الجهاد الأدنىٰ المادي بالقتال العسكري ضد عدو خارجي. ويعبر عنه تعبيرًا أفضل بالمودة أو الألفة مع الله (الخلة)، فهو تمجيد للظهور بالشكل الذي فعله إبراهيم ومحمد عليهما السلام مع اكتمال الرحمة الإلهية.

ما تصفه هذه الفصول من دقة وشغف هو تأكيد ابن تيمية علىٰ حرمة أي تصوير أدبي أو بيان بشري ينتهك حرمة سمو الله. ويميز بدقة بين ثلاث مراحل للتوحيد. المرحلة الأكثر عمومًا هي توحيد الربوبية، والتي تؤكّد سيادة الله علىٰ كلّ شيء. وهذا يشترك فيه مع المسلمين جميع الموحدين - اليهود والمسيحيين والسبئيين والزرادشتيين (المجوس) - وحتىٰ الوثنيين، وأما المرحلة الأدق عمومًا، والخاصة بالمسلمين الحق، فهي توحيد الألوهية. وتنادي بوحدة الله الكاملة والمطلقة. ورغم أنّها كانت مهمة جميع الرسل، لكنها كانت الرسالة التي سعىٰ لها محمد عليه الصلاة والسلام ولغايتها الأصيلة في تنزيه الله عن أي شبيه أو نسب من البشرية. لكن هنالك أيضًا نوع آخر من التوحيد أكثر صفاءً يصل الله بالبشرية. وهو يدور أيضًا حول الإسلام، ولكن يوسع طبيعة الصلة بين العبد وربه. يُسمىٰ توحيد الأسماء والصفات.

فلا سبيل لمعرفة كيفية تأثير هذه الوحدة الأخيرة لما وراء الغيرية الكلية

لله المعلنة في توحيد الألوهية. وعلىٰ المرء الإيمان بها. ابن تيمية يوضح كيفية ذلك وكيف أثرت في التاريخ البشري بالنسبة لمن يؤمنون بالله، ولكنهم ليسوا مسلمين.

ولعل من الاستبصارات الذكية الكثيرة في هذا الكتاب ضد التطرّف الأسلوب الذي يتتبّع فيه المؤلف آثار انفتاح شيخ الحنابلة علىٰ الآخرين، ومن بينهم غير المؤمنين، وإثباته الحق باختيار المصير الأبدي لمخلوقات الله تعالىٰ، وليس للحكام أو علماء الدين أو شيوخ المتصوفين. تتناول الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب طيفا من المواقف التي يواجه الإيمان فيها تحديا من العمل لدىٰ حكّام ظالمين، أو في حالة الاضطهاد والعنف وحتىٰ الموت.

حيث ينظر الفصل قبل الأخير في مصير الحاكم الحبشي الذي منح عام ٦١٥ م الملاذ للمسلمين المضطهدين. وقد تم عرض مصيره فيما يبدو في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (آل عمران:١٩٩).

لا تذكر التفاسير فقط والبحث في سياقات الوحي أن يكون النجاشي أو الحاكم الحبشي وحده سببا لنزول الآية، بل يجذب ابن تيمية الانتباه للمقارنة بين هذا المرء غير المؤمن الصادق وبين المنافقين. «بين أولئك الذين يعلنون إسلامهم، وبين المنافقين الذين لا يُصلّىٰ عليهم... مثل ابن أبي بن سلول ومن شابهه... كذلك قد يكون هنالك في أرض الكفر من هو مؤمن يصلىٰ عليه، لأنهم من نموذج النجاشي».

وأما فيما يتعلق بخدمة نبي الله يوسف عليه السلام لملك مصر، فيلفت الفصل الأخير الانتباه إلىٰ خصلة الشمولية لدىٰ ابن تيمية - حيث بحفظ الحدود لكن مع تأييد الاعتدال - ويرجعها إلىٰ نشاطات العالِم نفسه. وكأنّ ابن تيمية يوجه تسامحه العفيف ضد التنديد بخصومه أو إعلانهم خارج حدود رحمة الله، وذلك عندما يقرّ بأنّ: «المُجدد لدينه والمُحيي لسنته [من هو إن لم يكن ابن تيمية نفسه؟] ينقل فقط ما يمكن استيعابه وتطبيقه.. لا يمكن للعالم أو الأمير أن يأمر بكامل الواجبات من البداية... فالأوامر والنواهي في الواقع مشروطة بإمكانية الفهم والفعل. فإذا افترضنا الآن أن هذا الشرط لم يتحقّق [مثل حالة يوسف عليه السلام في خدمة ملك مصر]. فتأمل في هذا المبدأ الأساسي! إنه مفيد».

يمكن تعميم هذا القول علىٰ كامل مجموعة النصوص، والتعليقات والشروحات التي يضمها هذا الكتاب ابن تيمية ضدّ التطرّف. ومن أراد البحث في الأسرار والدوافع، والبيانات والحدود، لدىٰ ابن تيمية عالم الدين والفقيه الحنبلي الأعظم في عصره، فعليه تأمل هذا الكتاب! فهو مفيد، ومحاسنه واضحة وفوائده كثيرة!

بروس ب. لورنس
جامعة ديوك
٢٠ أكتوبر ٢٠١١

***